خطبة صلاة الجمعة 22/ 10/ 2021 للشَّيخ الطَّبيب محمّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(صدق الفعل في حياة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وكيف نتحلى به)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيّدنا محمّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

وقال سبحانه مخاطباً نبيّه محمّداً صلّى الله عليه وسلّم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

أخرج الإمام الترمذيّ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكم إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِني مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ: أَحَاسِنَكُم أخلاقاً»

وأخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللهِ صلّى الله عليه وسلّم: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ» وفي رواية البزار: «مكارم الأخلاق».

مع مطلع شهر ربيع الأوّل؛ شهر ولادة سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، بدأنا سلسلةً جديدةً من الخُطب تناسب الزمان والاحتياج، عنوانها: (**أخلاق النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وكيف نتحلّى بها**).

وهذه الخطبة الثّالثة فيها وعنوانها:

صدق الفعل في حياة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وكيف نتحلّى به.

أيها الإخوة:

الصدق كما يكون في القول يكون بالفعل؛ فإذا طابق الفعلُ الحقيقةَ كان صدقاً وإلا فهو الكذب.

لقد أخبر القرآن عن كذب الفعل في قصّة إخوة يوسف، عندما جاؤوا أباهم عشاءً يبكون وعندما جاؤوا على قميصه بدمٍ كَذِب، فلم يكن القوم يبكون حقيقةً، وما كان الدّم على قميص يوسف، ولكنّهم كذبوا في أفعالهم لِيُوهموا أمراً يخالف الحقيقة والواقع.

وأخبر القرآن كثيراً عن كَذِب الفعل في فضحه المنافقين؛ إذ إنّهم يعملون أعمالاً تخالف ما يُظهِرون، يكذبون إذا حدّثوا، ويخونون إذا ائتُمِنوا، ويفجُرون إذا خاصموا، ويُخْلِفون إذا وعدوا ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

وأخبر عن كَذِب الفعل في قصّة سَحَرة فرعون عندما سَحَروا أَعيُن النّاس واسترَهبوهم لِيُوهموا النّاس أمراً يخالف الحقيقة والواقع، وكانت العاقبة أن وقع الحقّ وبطل ما كانوا يعملون، وغُلِبوا وكانوا صاغرين.

وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أسوةَ الصّدق في أقواله وأفعاله وأحواله.

أخرج أبو داود والنّسائي عن سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه قال: (لما كان يوم فتح مكة أمَّن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم النّاس إلّا أربعة نَفَر، وامرأتين، وقال: «**اقْتُلُوهُمْ وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ: عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَطَلٍ، وَمَقِيسُ بْنُ صُبَابَةَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ**» .... فأمّا ابن أبي سرح، فإنّه اختبأ عند عثمان، فلمّا دعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم النّاس إلى البيعة، جاء به حتى أوقفه على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال: يا نبيّ الله، بايع عبد الله، فرفع رأسه، فنظر إليه ثلاثاً، كلّ ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه، فقال: «**أَمَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ يَقُومُ إِلَى هَذَا –حَيْثُ رَآنِي كَفَفْتُ يَدِي عَنْ بَيْعَتِهِ– فَيَقْتُلُهُ!**»

قالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك، ألا أومأتَ إلينا بعينك؟

قال: «**إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ تكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الأَعْيُنِ**»).

إنّه صدق الفعل، إذ لم يرضَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يُظهِر للرّجل الأمان ويشير بعينه إلى خلاف ذلك!

جاء في كُتُب السّير أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم صالحَ قريشاً في صُلح الحُديبية على أمور، منها: أنّ من أتى محمّداً من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممّن مع محمّد لم يردّوه عليه.

فبينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يكتب الكِتاب هو وسُهيل بن عمرو إذ جاء أبو جَندَل بن سهيل بن عمرو يَرْسُفَ في الحديد قد انفلتَ من تعذيب أبيه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

فلمّا رأى سُهيل أبا جَندَل قام إليه فَضَرب وجهه، وأخذ بتلبيبه، وقال: يا محمّد قد لجَّتْ –أي وجبتْ– القضية بيني وبينك قبل أن يأتيَك هذا، قال: «صَدَقْتَ».

فجعل يجذبه بتلبيبه ويَجرّه يردّه إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أُرَدّ إلى المشركين يفتِنوني في ديني؟!

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنْ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا، إنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا، وَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَأَعْطَوْنَا عَهْدَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَا نَغْدِرُ بِهِمْ». [يُنظر سيرة ابن هشام]

إنّه صدق الفعل، فَمَع صعوبة الأمر وشِدّته لم يرضَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يخالِف فعلُه الواقع، فيوافق على بنود الصُّلح ظاهراً ويُطبّق بفعله خلاف ذلك!

روى أبو نُعيم بسند ضعيف عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: دخل عَليّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأنا أفلّي رأس أخي عبد الرحمن، وأنا أُفقّع أظفاري على غير شيء؛ قال: «مَهْلًا يا عائِشَةُ، أَما عَلِمْتِ أَنَّ هَذا مِنْ كَذِبِ الأَنامِلِ؟»

إنّه صدق الفعل!

أخرج أبو داود عن عبد الله بن عامر رضي الله عنه قال: (دعتني أُمّي يوماً ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم قاعد في بيتنا، فقالت: ها تعالَ أُعطيكَ، فقال لها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيهِ؟»، قالت: أردت أن أعطيه تمراً، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تُعْطِيهِ شَيْئًا كُتِبَتْ عَلَيْكِ كِذْبَةٌ»).

إنّه صدق الفعل!

فصدق الفعل كما صدق القول خُلُق النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، والمتوقَّع أن يكون صدق الفِعال والمقال صفتَكَ، وأن تكون معروفاً به.

أيها الإخوة:

قد يفعل الإنسان فعلاً يوهِم به حدوثَ شيء لم يحدث، أو يفعل فعلاً يوهم به وجود شيء غير موجود، وذلك على سبيل المخادعة بالفعل؛ وهذا هو كذب الفعل وربّما يكون أشدّ خطراً وأقوى تأثيراً من كذب القول.

يعطي المراجعُ الموظّفَ معاملةً يحتاج إعدادها لدقائق، لكنّ الموظّفَ يتظاهر بالقيام إلى خزانة الأضابير ثم بالخروج حاملاً أوراق المعاملة من المكتب إلى المكتب المجاور ثم يعود مضطرباً ثم يطلب إلى المراجع أن يراجعه بعد يومين لإتمام الأمر؛ كلّ هذا ليُوهمه بالتّعب الذي بذله لأجل إتمام معاملته.

إنّه كذب الفعل!

يريد أن يقابِل زَبوناً عَلِم أنّه ملتزمٌ بالمساجد والقرآن، فإذا به يُفتّش عن سُبحة مناسبة في درج المهملات عنده لِيحملها معه في أثناء المقابلة إذ إنّها تعطي طُمأنينةً لهذا الزبون.

إنّه كذب الفعل!

يتلوّى من بطنه في أثناء الامتحان العمليّ لِيُوهم المدرِّس بمرضه لِيؤجّل له الامتحان للأسبوع القادم.

إنّه من كذب الفعل!

عندما دخل والدُه غرفتَه مساءً لِيُحاسبه على تقصيره في الدراسة تظاهر بالنّوم لِيهرب من المواجهة.

إنّه من كذب الفعل!

يصنع مصنوعاتٍ عاديّةً ويضع عليها اسم ماركة معروفة بإتقانها وجودتها.

إنّه من كذب الفعل!

يشتري شهادة دكتوراه بماله ويضع حرف الدال على بطاقته التّعريفية قبل اسمه.

إنّه من كذب الفعل!

يضع قِطَع الفاكهة الكبيرة والنَّضِرة أعلى الصندوق، ويُخفي تحتها صِغارها وفاسدها لِيبيعها على أنّها نوعٌ أوّلُ كلُّها.

إنّه من كذب الفعل!

يُعلن عن إقامتِه دورةً لمدة عشرين ساعةً في الأمر الفلاني، ويكتب أن الملتحقين بها سينالون شهادةً عالميّةً من الأكاديميّة العُليا، ولعلّ مدرّب الدّورة من حَمَلة الثّانوية العامّة فقط!

إنّه من كذب الفعل!

عبر موقعٍ الكترونيّ تطلب شركة غربيّة من مواطني بلد معيّن مَلءَ استبانات لقاء بَدَل ماليّ، فيدخلُ إلى الموقع شابّ من غير ذلك البلد ويملأ الاستبانةَ مُوهِماً أنّه من ذلك البلد.

إنّه من كذب الفعل!

هذه المواقف وأشباهها – أيّها الإخوة- أمثلة عمليّة على كَذِب الفعل، والمتوقَّع من المسلم التّحلّي بضدّه.

كيف يتحلّى المرء بالصدق؟

سَبق أنّ للإنسان صورتين؛ ظاهرةً هي الخِلْقَة وباطنةً هي الخُلُق.

وسَبق أنّ الأخلاق تكون فِطريّة وتكون مكتسبة، وصدق الأقوال والأفعال خُلق فِطريّ؛ إذ النّاس جميعاً يولدون مُحبّين للصّدق ويعملون به، وإنّما يكتسب المرء الكذب اكتساباً ويتدرّب عليه تدرّباً.

فإذا أراد امرؤ التّحلّي بالصّدق فما عليه إلّا أن يحافظ على فطرته التي جُبِل عليها، ويبتعدَ عن العوامل التي تُكسِبه الكذب، وهي ثلاثةٌ سَبق تفصيلها الخطبةَ الماضية: **البيئة، والاعتياد بتكرار الخبرات، ومؤثّرات الأهواء والشّهوات.**

أيّها الإخوة:

في شهر ربيع أكثروا من الصّلاة والسّلام على سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فإنّه مَن صلّى عليه صلّى عليه، ومن سلّم عليه سلّم عليه، وتدارسوا مع مَن حولكم حديثه صلّى الله عليه وسلّم وأخلاقَه، وسُنّتَه وسيرته، ليكون النبيّ حاضراً فينا وتكون سُنّته ماثلةً بيننا.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56]

والحمد لله رب العالمين